مقدمة

إن الخطر الأعظم الذي يهدد إسرائيل لا يكمن في خارج حدودها وإنما في داخل روحها ونفسها، تلك ليست مقولتي بل هي للباحث لورانس ماير المتخصص في الشئون الإسرائيلية واصفًا تعقيدات الوضع الداخلي لإسرائيل وتفاقمه بمرور الوقت، ومؤذنًا بفشل الرؤية الصهيونية في صهر هذا المجتمع في «بوتقة واحدة» والتي بشر بها الصهاينة الأوائل؛ فعبر مسار تراكمي من المهاجرين من شتى بقاع الأرض تشكل الكيان الصهيوني من خليط متنوع من الأصول العرقية والإثنية والحضارية، إذ يتألف من مستوطنين قادمين من أكثر من مئة دولة.

ولعل أحد أبرز تجليات هذا الفشل في صهر المجتمع في وحدة متجانسة هو تصاعد معدلات الصراع بين مكوناته، وهو الصراع الذي يأخذ مستويات عدة داخل الكيان الصهيوني؛ فهناك الصراع (اليمين/اليسار)، والصراع (الإشكينازي/السفاردي)، والصراع (الديني/العلماني)، والصراع (الديني/الديني)؛ أي: بين المتدينين أنفسهم، وتؤكد العديد من الدراسات أن عامل الزمن من شأنه أن يؤدي إلى تذكية هذه الصراعات وتفاقمها بشكل كبير في إشارة إلى احتمال حدوث انفجار داخلي لهذا المجتمع مستقبلًا.

غير أن الظاهرة الأبرز على الإطلاق هي اتجاه إسرائيل نحو حكم ديني وسيطرة اليمين الديني المتطرف على مفاصل الدولة، وهو ما يقود إلى الخوف من سيطرته على الحقيبة النووية، وهو هاجس عربي كما أنه هاجس إسرائيلي، هاجس عربي متخوف من توجيه هذا السلاح النووى لتدمير المنطقة العربية بحجة التعجيل بالخلاص الديني واستدعاء نهاية العالم تأسيسًا على ما يعتقد هذا اليمين الديني، وهاجس إسرائيلي علماني لا يرى في

سيطرة اليمين الديني على الحكم إلا نهاية للمشروع الصهيوني ذاته بتحول الكيان الصهيوني إلى نموذج ثيوقراطي متشدد.

وتدفع هذه التوترات المتفاقمة بحقيقة أن إسرائيل، طبقًا لرؤية العديد من المتخصصين الإسرائيليين أنفسهم، هي كيان استيطاني لم ينجز دوره الوظيفي الذي أقيم من أجله والذي بشَّر به الآباء الأوائل للحركة الصهيونية؛ إذ لا يزال المشروع الصهيوني عاجزًا عن التحقق؛ فقد خرج اليهود من جيتو صغير إلى جيتو أكبر، وزادت كراهية العالم لهم، ولم يتخلص اليهودي من أعباء الماضي كما كان يُعتقد، ولم يتم صهره في بوتقة واحدة، ولم يشعر بالأمان، وفقد بعده الروحي، ولم يقدم نموذجًا يحتذى في الديمقراطية كما وعدت الرؤية الصهيونية، كل ذلك يجعل من إسرائيل دولة تحمل في أحشائها كل عوامل فنائها.

لعل أحد أهم هذه العوامل على الإطلاق هو توتر العلاقة بين الدين والدولة في إسرائيل والتي أفصح عنها التناقض في إعلان قيام الكيان الصهيوني ذاته والذي جاء به: «إسرائيل هي دولة يهودية وديمقراطية» فكيف يمكن الجمع بين هذين المتناقضين، دولة دينية لليهود فقط أم دولة علمانية تحتوى الجميع؟ إن الجمع بين يهودية الدولة وديمقراطيتها لهو أمر ينطلي على تناقض بنيوى كبير، وهو التناقض الذي يعبر عن نفسه كثيرًا في شكل التوترات السياسية الداخلية المتصاعدة بين المتدينين والعلمانيين.

لقد طرحت إسرائيل على نفسها سؤالًا مصيريًّا، ومن ثَمَّ أجابت عليه دونما تردد، وهو: **هل إسرائيل هي دولة اليهود المقيمين فيها فحسب، أم دولة كل يهود العالم؟** وكانت الإجابة: «إسرائيل هي دولة كل يهود العالم»؛ فهي تكاد تكون الدولة الوحيدة في العالم التي ترى في نفسها دولة لمواطنين من دول أخرى، وهو ما يُسمّ يهود العالم بتهمة تعدد الولاءات فلأي دولة سيتجه ولاء اليهودي هل للدولة التي يعيش على أرضها أم لإسرائيل التي تدعي أنها دولة كل اليهود؟ ومن ناحية أخرى إذا كانت إسرائيل هي دولة اليهود فما وضع غير اليهود الذين يعيشون بها؟ مؤكد أنهم في مرتبة أقل وهو وضع يضرب مبدأ المواطنة في مقتل ويقوض إدعاء إسرائيل بأنها دولة ديمقراطية.

أضف إلى ذلك عوامل ومتغيرات كثيرة تجعل من إسرائيل كيان يحمل

في أحشائه عوامل فنائه ـ كما سبق القول ـ لعل أبرزها وطأة العامل الديمجرافي (أي: تناقص نسبة اليهود في مقابل العرب داخل الدولة بمرور الوقت وهو ما يهدد هويتها بأن تتحول لدولة عربية مستقبلًا)، وتآكل الوحدة الوطنية والمنظومة المجتمعية بما يشهده المجتمع الإسرائيلي من انقسامات حادة، والثورات العربية مؤذنة بإعادة صياغة المنطقة لتصبح مواقفها معبرة عن تطلعات شعوبها ومن ثَمَّ موقف عربي داعم للقضية الفلسطينية.

كل ذلك جعل من الكيان الصهيوني «كيان قلق» بكل ما تحمله الكلمة من معنى؛ فهو مفتت من الداخل ومهدد من الخارج، فقط عنصر الهاجس الأمني من عدو خارجي هو ما يزال يحفظ تماسكه.

كما يمكن أن نرصد متغيرًا جديدًا بدأ يشهده النظام الدولي لعل أبرز ملامحه ظهور لاعبين دوليين جدد وانحسار النفوذ الأمريكي متزامنًا مع الأزمة الاقتصادية العالمية وما تستدعيه من حالة من الانكفاء الداخلي؛ إذ إن اقتصادها يعاني من التباطؤ وزيادة عجز الميزانية، ومن ثَمَّ اتجهت لتقليص الإنفاق العسكرى وأن تنحصر مهمة الجيش في التركيز على مكافحة الإرهاب ومواجهة التحديات الصاعدة في آسيا بقيادة الصين، وهو ما يعني تراجع التركيز على الشرق الأوسط وربما فقدان إسرائيل لدورها الوظيفي الذي لعبته لصالح الغرب وأمريكا لسنوات طوال.

وعلى أية حال؛ فالكيان الصهيوني يواجه تحديات كبيرة متعلقة بمدى قدرته على الاستمرار في ظل صراعات داخلية وتعقيدات خارجية، غير أننا في دراستنا هذه سنلقي الضوء على أحد أبرز التحديات الداخلية، وهو إشكالية العلاقة بين الدين والسياسة متجسدة في الأحزاب الدينية وموقفها من القضايا المتعلقة بالحداثة ومن علمانية الدولة وكذلك الصراع العربي الإسرائيلي ـ وهو الجانب الأهم لدينا ـ وذلك في محاولة لفهم أعمق لتوجهات الكيان الصهيوني مستقبلًا، ومن ثَمَّ إمكانية التعامل معه اعتمادًا على قراءة علمية سليمة لمعطيات الواقع ومتغيراته.

والآن سنحاول في إيجاز سرد عدد من القناعات التي ترسخت عبر هذه الدراسة، والتي آثرنا إيرادها هنا ليتيسر قراءة الدراسة على ضوئها، ولعل أبرزها:

* أنه من دون دراسة تلك الأحزاب الدينية بتوجهاتها المختلفة والأسس العقائدية القائمة عليها وموقفها من الآخر وديناميكية العمل داخلها لن تنجح أية محاولة لتفكيك العقلية المراوغة للكيان الصهيوني وفهم لعبة تبادل الأدوار التي تتم عبر النظام السياسي ذاته، ولن نتمكن من فهم محددات صناعة القرار السياسي الإسرائيلي وسبب توجهه دومًا نحو التشدد فيما يتعلق بالصراع العربي الإسرائيلي.

* أن العنف يضرب بجذوره عميقًا في الوجدان الصهيوني، إذ إن الأيديولوجيا الصهيونية هي استراتيجية عنف بامتياز فهي قائمة على متتالية من خطوتين: الأولى: التخلص من أصحاب الأرض (أي: الفلسطينيين)، والثانية: إحلال آخرين محلهم (أي: الصهاينة)، غير أن التيار الديني الصهيوني قد دفع بتلك الأيديولوجية إلى حدها الأقصى عبر إضفاء مسوغات دينية عليها، ومن ثَمَّ تبدو في ذهن كثير منهم وكأنها أمر إلهي يتحتم على الجميع الامتثال التام له، ومن ثَمَّ فالحرب حالة نهائية في الوجدان الديني الصهيوني إذ من خلالها وحدها ستتحقق الأهداف التوراتية كاملة، بحسب اعتقادهم، بل وإن تطلب الأمر فالفناء للجميع، وكما هدم شامشون اليهودي المعبد على رأسه وعلى رءوس أجداد الفلسطينيين بحسب النص الديني (دعني أفنى مع الفلسطينيين)، هكذا تحت ظروف معينة يمكن إطلاق السلاح النووى وليكن الفناء مصير الجميع.

فالنمط الإدراكي المسيطر على أغلبية المتدينين داخل الكيان الصهيونى في لحظته الراهنة نحو العرب هو باعتبارها نفايات بشرية يجب التخلص منها، والحروب هي سُنَّة الله في خلقه وذلك وفقًا لنصوصهم الدينية (**قال الرب: لا سلام للأشرار**)، ومن ثَمَّ يردد المتشددون اليهود دائمًا مقولة: أن «**العربي الجيد هو العربي الميت**»، وها هو الحاخام عوفديا يوسف يعلن رفضه لإبرام أية اتفاقات سلام مع العرب، إذ يقول مستنكرًا: «**كيف يمكن إقامة سلام مع الأفاعى العربية**» وأنه لا خلاص طالما العرب في فلسطين، وهو أمر يجعل من المستحيل التوصل لتسوية عادلة لصراع الشرق الأوسط في ظل احتمال قوي بانقضاض هذه الأحزاب الدينية على سُدّة الحكم في المستقبل.

* أن جماعات التوظيف السياسي والمتشدد للدين تتبع ذات الاستراتيجية في كل الأديان، فتأتي بقضايا هامشية في الدين ثم تقذف بها إلى المركز ليدور الدين كله حولها، ثم تقتطع النص الديني من سياقه وتضعه في سياق آخر، تسقط صراعات الماضي على الواقع الراهن، تقسم العالم إلى محورين الخير والشر ونحن وهم، أو تصادر المستقبل فهو من وجهة نظرها خطة معدة سلفًا ولا يملك الفرد منها فكاكًا، تضحي بالوسائل على مذبح الغايات فترتكب البشاعات بزعم أن الأمر في النهاية هو لخير البشرية في آخر الأيام وأن تلك البشاعات والجرائم هي أمر محتوم وبدونها لن يكون هناك خلاصًا.

* أن الدين مجمل يمكن قراءته قراءتين مغايرتين ومتناقضتين تمامًا: قراءة عنف، أو قراءة تسامح، ففي اليهودية ورد في الوصايا العشر والتى حرّفها المتشددون تأويلًا فجعلوها مقصورة عليهم فقط: «لا تقتل، لا تسرق، لا تزن، لا تشهد شهادة زور، لا يكن لك آلهة أخرى أمامي، لا تحلف باسم إلٰهك باطلًا، لا تشته امرأة قريبك، ولا عبده، ولا أمته، ولا ثوره، ولا حماره، ولا شيئًا مما لقريبك، أكرم أباك وأمك لكي تطول أيامك على الأرض» أصبحت تعني لديهم، وفقًا للتوظيف العنصري للنص، لا تقتل اليهودي غير أن دم غير اليهودي مباح، لا تسرق اليهودي غير أن مال غير اليهودي هو حل لك، لا تزن بامرأة يهودية غير أن عرض غير اليهودية ليس حرام عليك وهكذا، كما حرّفت الصهيونية نبؤة النبي إشعيا الداعية للسلام مع جميع الأمم ومن ثم أصبحت لديهم السلام الداخلي لشعب إسرائيل فقط.

في حين أن تلك النصوص وغيرها يمكن أن يتأسس عليها نسق أخلاقي إنساني متكامل إذا ما حسُن قراءتها على قاعدة التسامح بين البشر والأخوة الإنسانية باعتبارها من مقاصد الأديان، فتحريف النصوص الدينية ليس فقط تغييرًا وتبديلًا بل في كثير منه يكون تأويلًا واقتطاعًا من السياق وإسقاطًا على واقع مغاير تمامًا للواقع الذي انبثق عنه وجاء استجابة له في محاولة لتقويم اعتلالاته، ومن ثَمَّ نجد أنفسنا أمام نمط ديني معادٍ تمامًا للدين ذاته، أو دين ضد الدين بحسب ما يذهب علي شريعتي.

* أن وجود إسرائيل بتلك الصيغة الحالية هي تعبير عن مأزق

الجماعات اليهودية في بدايات العصر الحديث، هو تجسيد لفشلهم في تقديم صيغة للاندماج وكذلك فشل الحضارة الغربية في استيعابهم ومن ثم كان مصيرهم النقل إلى الماضي وليس هناك مسرحًا يمكن أن يتجسد به هذا الماضي خير من فلسطين بما تحمله من دلالات دينية لديهم، ولكن ماذا لو تطورت تلك الجماعات اليهودية إيجابيًّا وكانت على مستوى التحدي وذابت في الحضارات الأخرى قوميًّا لكنها ظلت محافظة على هويتها الدينية لتؤدي رسالتها الإيمانية بشكل إنساني؟ ألم يكن خيرًا لهم مما هم عليه الآن؟ ألم يكن في ذلك فرصة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من اليهودية في تصورها النقي؟ ألم يكن في ذلك إنقاذ للدين اليهودي ذاته من تلاعب الصهيونية به إذ حولته لأيديولوجية للقتل والاستيطان؟ لعله كذلك، وفي هذا عبرة لكل الجماعات الدينية التي ترفض الاندماج في مجتمعاتها والاشتباك مع مستجدات الحداثة باعتبارها غزو لروح الدين وأن في الدين ما يكفي الإنسان ومن ثم لا حاجة لأي علم آخر، هنا يتحجر الدين ويتشرنق حول ذاته ومن ثم يتحول بشكل جذري ودراماتيكي من قوة دافعة للبناء إلى عامل تراجع وتخلف.

* تُعد عقيدة «انتظار المخُلِّص» أبرز العقائد على الإطلاق التي شكلت قناعات الأحزاب الدينية الإسرائيلية المتشددة ومن ثم صاغت على أساسها برامجها الحزبية وتوجهاتها السياسية، إذ تم توظيفها سياسيًّا بشكل جعل منها أيديولوجية للعنف والقتل والاستيلاء على أوطان وحقوق الآخرين، إذ بموجبها تم تبرير إبادة الشعب الفلسطيني ثم الاستيطان مكانه، باعتباره شرطًا أساسيًّا لقدوم هذا المخُلِّص فكل شيء مباح لتحقيق ذلك، إذ إن الغاية دائمًا وأبدًا تبرر الوسيلة لديهم، فما دامت الغاية هي في نهاية الأمر إقامة فردوس أرضي عمره ألف عام، فلتتحمل البشرية بعض الإبادات والآلام من أجل تحقق ذلك، فتلك الإبادات وفقًا لطرحهم بمثابة آلام المخاض التي بعدها ستنشأ حياة جديدة ومن دونها فالأمر مستحيل.

في حين أن مقصود فكرة انتظار المُخلِّص في المعتقد الديني في نبعه الصافي هو في ترسيخ دورها في إلهام الشعوب وإثراء الأمل لديهم في عدالة قادمة لا محالة شريطة العمل الجاد والسعي لتحقيقها بوسائل وآليات قيمية أخلاقية وإنسانية، فالمخلص تم تحويله عبر القراءة الدينية الصهيونية من مصلح إلى قائد سياسي يغزو ويقتل.

* يغالي التيار الديني الصهيوني في تشدده في ظل مكبوتات داخلية: تاريخ من القهر في ظل الحضارة الغربية، وأمة مختارة لم يتحقق اختيارها على الأرض، وتوجس دائم من الآخر بأنه يريد الخلاص النهائي من اليهود، وهي مكبوتات عزّزها الوجود في المحيط العربي كدولة محاطة بأعداء في ظل هذا كله يتعزز سلوك الأنا الجماعية الصهيونية متجهًا نحو العنف وعليه تتجلى قابلية الأفراد إلى الانصياع إلى قرارات وأفكار معينة بِغَضِّ النظر عن صوابها من خطئها ما ردامت صادرة مما هو في اعتقادهم أعلم منهم، وهو نوع من التفكير بالوكالة، فالحاخامات يفكرون والأتباع ينفذون، وبالقطع فالحاخامات يفكرون وفقًا لمصالحهم وتثبيتًا لمكانتهم بين الأتباع وتكريسًا لمكتسباتهم، في ظل نظام عالمي ظالم ومتوحش يضفي مشروعية على تلك الممارسات، وفي ظل تردي الأحوال العربية فإن هذه الممارسات تتصاعد، من هنا يتكون العقل الدوجمائي الصهيوني بكل تجلياته العنيفة التي تغالي في عنفها بمرور الوقت.

* تمثل المسيحية الصهيونية واحدة من محددات صنع القرار السياسي الإسرائيلي ودفعه نحو التشدد، بل هي الأهم على الإطلاق والأكثر تأثيرًا بما توفره من دعم مادي لإسرائيل وكغطاء سياسي يمثل عقبة أمام المجتمع الدولي تحول دون اتخاذ ردود أفعال حقيقية ضد جرائم الكيان الصهيوني وبخاصة المتعلقة بالاستيطان في الأراضي المحتلة والذي تدفع به المسيحية الصهيونية إلى حده الأقصى تعجيلًا بالخلاص، ولك أن تعلم أن الدعم المادي الذي تمد المسيحية الصهيونية إسرائيل به يفوق دعم المنظمات والجماعات اليهودية حول العالم، والمفاجأة أنه في حين يزداد الأول (دعم المسيحية الصهيونية لإسرائيل) بمرور الوقت يتقلص الثاني (دعم المنظمات والجماعات اليهودية حول العالم لإسرائيل) وهي ظاهرة في حاجة لمزيد من البحث والدراسة لمعرفة مآلاتها وانعكاساتها على الصراع العربى الإسرائيلي، بل ومن دون مبالغة على مصير البشرية كلها وإلى أين تتجه في ظل تنامي هذا التيار وحشده لمعركة نهاية العالم وحتمية فناء غالبية بني الإنسان في تلك المعركة بحسب زعمهم.

* أن عملية صناعة القرار السياسي في إسرائيل ـ وبخاصة المتعلق بالاستيطان والانسحاب من الأراضي المحتلة ـ محكوم عليها بالتشدد

والمغالاة بمرور الوقت في ظل وجود هذين الفاعلين: جماعات التشدد الديني والعلماني في الداخل، وجماعات المسيحية الصهيونية في الخارج، وأنه من غير المنتظر إيجاد حلول سلمية عادلة للصراع العربي الإسرائيلي من دون حدوث تغير جذري في بنية هذين الفاعلين فكريًّا وتنظيميًّا من ناحية، وفي ظل استمرار الأوضاع المتردية الراهنة التي تمر بها الأمة العربية من ناحية أخرى.

* أن ما يرتكبه الصهاينة من أعمال إجرامية ضد الفلسطينيين، هي في كثير منها ذات دوافع دينية تأسست على قراءات خاطئة وتعسفية ومقتطعة ومجحفة للنصوص الدينية، إذ تنطلق من تفسير جامد لكثير من تلك النصوص باقتطاعها من سياقها التاريخي ومحاولة إسقاطها على الواقع الحالي، والخطأ في ذلك أنه يبدأ من أيديولوجيا فكرية ما متجهًا إلى النص ليبحث عما يعضد أيديولوجيته تلك، فاليهودي المتطرف المعاصر يقرأ هذه النصوص على ضوء أيدولوجيته التي تكونت مسبقًا ومن ثم يسقطها على واقعه، فعلى سبيل المثال تتجه فتاوى التشدد اليهودي لشيطنة الفلسطينيين باعتبارهم أحفاد العماليق وهم الأعداء التاريخيون الذين دعت التوراة لإبادتهم مؤكدين أن لكل عصر عملاقه ومن ثم أصدروا فتوى باسم «حكم عملاق»، وهي من شأنها الدفع نحو مزيد من القتل للعرب والمزيد من إحلال يهود مكانهم عبر إضفاء تبريرات دينية على تلك الممارسات، ومن ثم يبدو الاستعمار الاستيطاني بكل بشاعاته وكأنه أمر ديني.

تلك هي بعض القناعات التي تشكلت عبر مسيرة هذه الدراسة حول الأحزاب الدينية الإسرائيلية ودورها في صنع القرار السياسي، ومن ثم علاقة الدين بالدولة داخل الكيان الصهيوني وإلى أين تتجه، وهي قضايا سنتوقف عندها كثيرًا في مواضع متفرقة طوال مسيرة الكتاب.

كما ستركز الدراسة، وخاصة في خاتمتها، على المستقبل عبر الإجابة عن سؤال (ماذا لو؟) ومن ثم ما هي سبل الاشتباك والمواجهة مستقبلًا، ولكن لماذا الحديث عن المستقبل هنا؟ قطعًا لأن الحديث عن المستقبل من شأنه استشراف سيناريوهات الصراع العربي الإسرائيلي ومن ثم تبني سيناريو بعينه ومحاولة تحقيقه وإنفاذه في عالم الواقع.

حقيقةً أن هناك نقصًا حادًا في الدراسات المستقبلية العربية، في ظل غياب الرؤية المستقبلية في بنية العقل العربي ذاته، فهذا العقل مسكون بغواية إعادة إنتاج الماضي وبخاصة العقل الديني التقليدي منه، وهو ما دعا بعضهم لأن يردد تلك المقولة الساخرة: «العرب يتنبأون بالماضي ويتذكرون المستقبل»، ولكن كيف يمكن توطين الدراسات المستقبلية في العالم العربي، كيف للعقل العربي أن يتصالح مع المستقبل وينفتح عليه استشرافًا وتخطيطًا ومن ثم تنفيذًا؟ كيف ننقذ هذا العقل من الغلو في الاهتمام بالماضي؟ الأمر قطعًا بحاجة لجهود فكرية كبيرة شريطة الإيمان المسبق بأهمية الدراسات المستقبلية ودور الإنسان في صناعة مستقبله والاختيار من بين أكثر من بديل، فهناك مستقبلات عديدة وليس مستقبل واحد.

لقد أضحى استشراف المستقبل والتخطيط العلمي لحركية الحياة ضرورة ملحة في عالمنا العربي الذي يسير بعشوائية مطلقة في لحظته الراهنة، فها هو عالم المستقبليات العربي مهدى المنجرة يحذرنا من استعمار جديد هو «استعمار المستقبل» يقول المنجرة: «إن العالم الإسلامي إذا لم يخطط لمستقبله فإنه يوشك أن يُستعمر بدوره كما استُعمَر ماضيه وحاضره»، ومن ثم فنحن بين خيارين لا ثالث لهما: إما أن نرسم نحن ملامح مستقبلنا تأسيسًا على قناعاتنا وتطلعاتنا أو يرسمه لنا آخرون وفقًا لمصالحهم.

بل إن رسم مسارات المستقبل أصبحت حتمية إنسانية عالمية في ظل المصير الكارثي الذي ينتظر البشرية إن ظلت تسير بذات الطريق المحكوم بصراعات القوة وسباق التسلح في عالم تتزايد فيه الأصوليات المتطرفة مقابل تزايد التيارات الإلحادية والقومية المتطرفة وهو استقطاب حاد أدى إلى تفاقم النزعات العرقية والانفصالية والقومية، وإن لم يتم التدخل سريعًا سينفجر العالم في ظل الخيار النووي الذي أصبح متاحًا بيد كثيرين، لقد افترض نموذج حدود النمو لنادي روما أن مستقبل البشرية لن يكون جيدًا إن استمرت الاتجاهات السلبية الراهنة على ما هي عليه وأن الوضع لن يتحسن إلا في حال الحد من هذه الاتجاهات، يقول جون تايلور وهو محق في ذلك: «علينا أن نحاول بناء ملامح الطريق الذي يجب اتباعه خلال الثلاثين عامًا المقبلة لمنع الإنسان من إبادة نفسه»، وهو أمر لن يتأتى من دون الانخراط في دورة حضارية جديدة عبر تطوير منتج حضاري يتأسس عليه نظام علمي

جديد من شأنه الحد من لاقيمية النظام العالمى القائم وفقدانه لبوصلة أخلاقية إن صح التعبير.

وفيما يتعلق بالصراع العربي الإسرائيلي فعملية بناء السيناريوهات يجب أن يسبقها إعادة صياغة خريطة إدراكية لواقع الكيان الصهيوني تكون أكثر التصاقًا بهذا الواقع وتعبيرًا عن الحراك الديني والاجتماعي والسياسي داخله، ومن ثم يأتي دورنا في بناء سيناريوهات المواجهة تأسيسًا على معطيات ثلاث: متغيرات المجتمع الإسرائيلي، متغيرات العالم العربي، متغيرات النظام الدولي وموقفه من هذا الصراع، ثم حساب اتجاهات ومقدار هذه المتغيرات والوتيرة التي تسير بها، وهي من دون شك عملية معقدة تأسيسًا على تعقد الدراسات المستقبلية ذاتها فهي سياق منهجي عابر للتخصصات (Transdisciplinary)، يتطلب جهودًا من علماء في تخصصات عديدة، فالطبيعة الفريدة للدراسات المستقبلية أنها مزيج بين العلم والفن، وبين الكمي والكيفي.

وتتطلب عملية بناء السيناريوهات إبداعًا وخيالًا فكريًّا عميقًا، على أن تتأسس قناعة مسبقة بأن المستقبل هو أمر مفتوح على كل الاحتمالات، وأن هناك مستقبلات عديدة وليس مستقبل واحد، فأزمة التيارات الدينية المتشددة في كل الأديان هي الكفر بمقدرة الإنسان على صناعة مستقبله، إذ يعتقدون أن البشر يسيرون معصوبي العينين نحو عالم جبري ومصير محتوم، وسوف نرى كيف وأن الحركات اليهودية الماشيحانية تدعي أن المستقبل هو خطة مرسومة سلفًا ومن ثم تحاول تحقيقه باعتباره إرادة الله، ومهمتها «إجبار يد الله» لتحقيق تلك الخطة سريعًا، بحسب زعمها، ومن ثم فكل الوسائل مباحة، بغض النظر عن دمويتها، من أجل تلك الغاية.

ومن دون شك فعملية بناء السيناريوهات تتطلب مناخًا من الاستقلال الفكري للقائمين على تلك المشروعات المستقبلية: بعيدًا عن الأيديولوجيات المسبقة وتجنب أي انحياز أيديولوجي مسبق من ناحية، وبعيدًا عن سطوة السلطات الحاكمة من ناحية أخرى، فالمشكلة أن الدراسات المستقبلية لا يمكن لها أن تنمو إلا في وسط مناخ ديمقراطي حر، إذ في ظل أنظمة ديكتاتورية سيتم إنتاج أشباه دراسات مستقبلية تؤيد خيار الوضع القائم وتثبيته

مؤكدة أن من دونه الفوضى، في حين أنه يجب دراسة المستقبل دراسة مفتوحة على كافة الاحتمالات والسيناريوهات، ومن ثم اعتماد عدد من السيناريوهات المختلفة ثم تعيين القدرات اللازمة لإنجاز أي مسار مستقبلي منها.

على ألا نتورط في الدعوة إلى سيناريوهات مثالية غير قابلة للتحقق ومنفصلة عن ملابسات الواقع، أو أن نستسلم لارتهانات الواقع وتكريس الوضع الراهن بل التأسيس لفرضيات متجاوزة مع قابليتها للإسقاط على الواقع المعاش الآن، فلا تغالي في مثاليتها ولا تتحجر وتتكلس عند لحظة زمنية معينة بل تتطور دائمًا لتلاحق متغيرات الواقع الذي هو في سيرورة مستمرة.

وفي المجمل فهناك السيناريو التشاؤمي، والسيناريو التفاؤلي وهو نوعان تفاؤلي خيالي، وتفاؤلي قابل للتحقق، هذا الأخير هو ما يجب السعي لتحقيقه وإنفاذه في الواقع، فالمستقبل لم يعد مجرد المنطقة التي ينبغى استكشافها، وإنما المنطقة التي ينبغى بناؤها، وهذا ما سنحاول إنجاز بعض ملامحه في تلك الدراسة وفي دراسات قادمة بإذن الله لاستشراف مستقبل الصراع العربي الإسرائيلي واقتراح سيناريوهات المواجهة.

وبالعودة للأحزاب الدينية في إسرائيل والتي هي موضوع الدراسة، فهي تنقسم بصفة عامة حسب موقفها من الصهيونية إلى:

أحزاب دينية صهيونية: وهي امتداد للتيار الديني الصهيوني الذي رأى أن الحركة الصهيونية تمثل الخلاص الحقيقي للشعب اليهودي، وأن بعض المظاهر العلمانية للصهيونية يمكن تجاوزها مستقبلًا.

وأحزاب دينية رافضة للصهيونية: وهي امتداد للرؤية اليهودية الأرثوذكسية التي ترى أن الصهيونية قد أضرت كثيرًا بالديانة اليهودية وأفقدتها بعدها الروحي، بل وجعلت الخلاص شأنًا إنسانيًّا بحتًا دونما دور يذكر للعناية الإلٰهية.

وسوف ينقسم هذا الكتاب إلى ثلاثة فصول:

الفصل الأول: النظام السياسي في إسرائيل «رؤية عامة».

الفصل الثاني: الأحزاب الدينية الصهيونية.

الفصل الثالث: الأحزاب الدينية الرافضة للصهيونية.

وأخيرًا يبقى تساؤل مركزي، هل حقًا أن المجتمع الإسرائيلي هو مجتمع معقد ولا يمكن التنبؤ بسلوكه؟ وأنه انطلاقًا من هذه الرؤية لا يمكن الجزم بمستقبل الصراع العربي الإسرائيلي اعتمادًا على تحليل معطيات هذا المجتمع؟ نعم إن المجتمع الإسرائيلي ـ ككل المجتمعات الإنسانية ـ هو مجتمع معقد تعقيد الظاهرة الإنسانية ذاتها؛ فلا يمكن بأية حال تحليلها في سببية بسيطة أو أن تؤدي نفس المقدمات لذات النتائج دائمًا، إن هذا يمكن أن ينطبق على العلوم الطبيعية، أما في الظواهر الإنسانية؛ فالأمر جَدُّ مختلف، وأكثر صعوبة، وهي الصعوبة التي تزداد بازدياد تعقد هذه الظاهرة وذلك المجتمع ـ كما في المجتمع الإسرائيلي موضوع دراستنا هذه ـ ومع هذا كله فإن دراسة المجتمع الإسرائيلي هي ضرورة ملحة، على اعتبار أنه يمكن بناء أكثر من سيناريو ـ وليس القطع بسيناريو واحد ـ لمستقبل هذا المجتمع، وبالتالي محاولة التدخل لتحقيق سيناريو بعينه، واستبعاد وتحييد الآخرين، تلك هي القيمة الحقيقية من وراء مثل هذا النوع من الدراسات، أن تنطلق من الماضي والحاضر وعينها دائمًا على المستقبل.

والله أعلم.